

ومره من الشرق

اللقاء الأخير

بقلم ميشال حايك

مناسبة مرور سنتين على وفاة الخوري يوسف الحداد ، نذكر عنه هذا المقال من أحد أحيائه - وما أكثرهم - الذين تمرقوا اليه عن كتب . والحداد هو صاحب كتاب « اللبنانية » و « النجوى » الذي يكاد يكون وحيداً في مكتبتنا العربية من نوعه لما فيه من رجوع . وجلوس الى الطبيعة والاستثناء بمظاهرها الخلابة . والطبيعة عند الحداد تبعث على الهدوء والراحة والرجاء . فهي « كتاب الله » كما يقول . وللحداد روايات عديدة طيبة منها « لورثور » و « ملك السجون » . وله كتاب تاريخي قيم « المرأة » طبع منذ سنوات قليلة . قمى نشر . خطوطه الباقية لبنياد الادب العربي من طلاوتها وغناها .

هل اناديك وفي الصوت بحة جوقاً . لا تخترق حدود هذا الفضاء . الخيم علينا ؟
هل اناديك وحيثما تقطن الان « لم تنظره عين ولم تسع به اذن ولم يخطر على قلب بشر ؟ »

عباً نداني فانك من افقك العالي لا تسع اصواتنا التي يختمها التراب وتبددها الانسام القوادي .

مضت سنتان على انطباق عينيك الابدية ، ولم يكن بعد من يخبر عنك الا بعض مقاطع من شعرك تتردد على الالسنه ، اسدلوا الستار على مسرح ايانك فكانك لم تكن ، وكان الحياة لم تحلم بك يوماً ، وكان القبر يحيط امانيك المحنجة وآخر اغنية انشدتها يا شاعراً كان في الارض ولم يكن للارض .

من ضجة الحياة الصاخبة الى ضجة الموت ،

من انشودة العمر والطيب الى انعقاد الشفاء ،

من اليد المدودة الى العيش الى اليد الملقاة في تعب على صدرك لا حراك فيها .

من المهد الى اللحد ،

ماذا رأيت وماذا تركت ؟

رأيت « ان الحياة هي حلم ، ومدتها بافراحها واطراحها أكدة المنام ،

وان يكن من معز فالجهد بصبر وطلب وجه الله . »

وتركت قطعات من روحك على ورقات فانية تذخي عليها فتستقر من

كل مقلد دمةً جاز عنها الشقاء . في محاجرنا .



ذهبت ولم المس من كفك آخر خفقة ، لتسير في جسمي آخر خفقة من

جسك ، فاحملك معي طول ايامي .

ذهبت ولم احدد اليك طرفي لينطبع في عينك المعضتين رسمي ، وتأخذني

معك الى غربة القبر فاسليك .

احاول ان اتذكرك وابعث من غبار الايام صورتك الواضحة .

احاول ان احيي ما رَسَب في اعماق نفسي منك .

وحينا مررت على اثارك مجتهداً في ان استلّ لولنا لحياك وجدت السطور

بين يدي قعيّة ، عديمة الالوان ، واذا بحقيقة رسمك تجفل من أمامي .



لم يبق لي الا ان اخطط ملاحك من خلال لقائنا الاخير :

كان ذلك في اواخر شهر آب عام ١٩٤٨ . جئتك ماشياً كأنني احج الى

ارض اقداس ، ولفح الهجير يحرقني . فالتقيت بك في ذلك الوادي ، حين

كنت على صخرة موحشة بعيداً عن المساكن ، غارقاً في صمت ملهم وتأمل

خاشع . وعلى الجبال البعيدة رعاة ينشدون في القصب الحان التسبيح والعبادة .

هناك رأيتك وقد استراحت عماك بين رجلين مستندة الى الركبتين اللتين

هدأتا رؤوس الكثيرين من البشر ، وقد غرق رأسك في قبعة من صوف ،

وبان خلالها عيان غائرتان في وقبٍ سحيق .

فشرت كأنك في غيوبة انحطت فيها حواجز الذات وكساقت الحدود

الترابية رويداً رويداً فرحت سارحاً ورا. نفسك الوراق في الحمال في شوق
اصم وشهوة طاهرة خرسا: تحملك على جناحيها الى غير دنيانا...

على تلك الصخرة شاهدتك ووقفت ورفيتي نتأملك من بعيد ونستعرض
بغير الكلام مراحل أيامك ، ما اجلاها جلسة كانت صورة حياتك . كنت
دائماً على صخرة ثابتاً في معتقدك لا تقترح عنه ، ثابتاً في ادبك الذي شنته
تعبيراً صادقاً عن وجهة القلب الحقيقية ؛ على صخرة بعيداً عن احوال الارض
واقذارها . على صخرة وكالنسر الذي يبني عشه على انفا ، بنيت حياتك
وجعلت الصخرة الاساس . وحين عصفت الزوبعة وهطأت المياه الجارفة ما خشيت
السقوط او الميلان . ومن على صخرتك نظرت الى الحياة فرهدت بها . رأيتك
هناك وقد اغمضت عيني روحك عن الارض لكي لا تشارك فيها بشبواتهم
ولا تقاسمهم نزاعاتهم ، ورأيت السنين تمر على عيني جسدك قتلحس النور وتغور
النظر ولكنتك . ما برحت تبصر الان الضوء الحقيقي الذي يهجع مشعاً في كل
قرارة كل نفس لا تخشى ان تتطلع الى ذاتها غريبة من المساحيق التي ما اكثر
ما نخفي بها حقيقة الكيان الانساني .

نظرت الى الحياة من على صخرتك فوجدتها :

دنيا اغر من السراب نعيمها وامر طمأ من عصير العلم
يسعى اللئيم بها رغيداً عيشه والحريثي فوق وكر الارفر

وهكذا اصبحت لديك جميع المناهج متساوية فكلها اباطيل وغرور
فاعتصت بثوبك الاسود تتخفى فيه عن عيون الشر المنفتحة على كل مخارق .
وظن الآخرون ان ثوبك ضيق عليك وأرغمت حريتك ، لكن الحرية كنت
تستدّها من ذلك الذي تجنّدت في سبيل خدمته ، ذلك هو الحق الذي يحجّر
الذين يعرفونه .

عرفت ان الحياة لا تبقى لاحد فما هي الا ريشة في مهب الياالي العاصفات
وعصافه بالية يعبث بها الزمان المتحول . فتشأ من ذلك قلق في نفسك والنفوس
الكبيرة هي ابدأ قلقة مضطربة فرحت تبني وجودك على اساس مكين ، على
صخرة .

لما اجل جلستك امامي .

وقفت ورفيقي نتأملك وكنت وحدك تسبح في كون غير هذا وانت تلك
النفس الجوابة التي تبحث عن حبيب ازلي اضاعته في هذا العالم .

يا صاحب الجفون البيضاء . المكحلة بغيار السنين ، الملونة باضواء . علوية
تشع في ليل الناس ولا يصرونها ، يا صاحب الشعر الاشعث الهازي بطلام
الناس ، رأيتك على صغرتك موحشاً وكم كنت تجلس هكذا ساعات
متواصلات دون حركة ولا اختلاجة في عرق ظاهرة ، وبطنك المارون مضطجعا
بينما انت في يقظة تسخر من عيوننا المفتحة على ارض الزوال .

وحده الان كما كنت في كل حياتك . لم تأبه لحداك صديق ولبطلان
علاقة نسرت على الدرب اغزل تحمل في جنانك صفاء البكارة الاولى . وحده
لانك كنت من تلك النفوس التي تغلو كل ما حولها . وحده والنبوغ وحده
ووحشة وانفراد . . .

لحيتك المتهدلة البيضاء . يعبث النسيم الآتي من صوب البحر بشعراتها
ترينيك ، في ذلك الوقار ، شيخاً من شيوخ الاساطير القديمة صورته احد الشعراء
من بلاد الاغريق . ولا عجب فاشعارك كاشعار القدماء . تثير على كل لسان ،
يوريا القرويون في اعالي جبالنا وقللاً ألا يكون على لسان فلاح او راع كلمة
من تلك التي عطرت بها جرود بلادنا . وما اقل الذين يفهمونها ، ولكنهم
كلهم يشعرون ، دون ان يفهموا ، بان عنائك وحده داخلية بين الحياة التي
كنت تعيشها والاثار التي تركتها . وقد لا يذكر تاريخ الادب بين سطوره الا
بعض لمحات عن جمال بيانك وشدة اسره ، ولكن الذين عرفوك سوف يذكرون
خصوصاً جمال نفسك وشدة الحفاظ على عقيدتك . ان ما تركت من الاثار
قليل جداً بالنسبة مما كان لديك من مواهب ، وبالنسبة مما كتبه انت .

هذه البقعة بكاملها الممتدة الان امامي انت غديتها حين كنت تعصر
روحك فتخلق في صغرة اشعارك الكلمة الصافية وتجمع النبرة الخنونة . وكنت
تلقي على هذه الاكبات التي تقترشها الشمس جمالاً فضفاضاً فتجعل الارض بعد
سرورك عليها اتقى والصخرة اطرى وانعم ملمساً . . .

كنت جالساً امامي ولم يبق بينك وبينى غير خصوصيات قلل من عيني ولا أشعر بقربي منك . ثم دبرت مني وحييتك ولمست يدك وقبلتني وضمتني بحنان الى صدرك كالطفل الى صدر امه مشتاقة ، فاحسست بانفاسك تخترق جسمي وتدور في عظامي كأنها حجرة مطهرة كنتك التي لمست شعبي اشعيا النبي .

وجلست قربك اسمعك وتسمعني واشعر بطغورك واخجل امام طفولتك من ذاتي . ما كنت تقول لي لم يكن بالعجب ولكنه كان كل شيء . والكلمة التي تروح تنثر من شفئك تحمل معها اثر نقاوة نفسية ولذلك يستقبلها الطفل الثاوي فينا فيرقص من بهجة وحبر .

قلت لك : « لماذا تعزل الناس ؟ » فاجبتني : « اخشى ان اعكر على الناس راحتهم لانني شيخ والشيخ يعدهم الناس عالةً وتقللاً . » فاعجب لتلك الیقظة الروحية التي كانت ميزاتك من الطبيعة وتلك النفس الرقيقة التي تحت وفر السنين حفظت صفاء يحاكي صفاء الاطفال ونعومة كانت دهنًا للرجال .

وتحت صروف قاسية تطحن القلب طحيناً بقيت كما انت ، ذلك الطفل الجامع يديه يصلي بحجارة مسورة . أرهقتك آلام عديدة ، وبنت ليالي طويلة على مخزات الوجع يتأكل عظمك المكسور وما كان ذلك الا ليزيدك اقتراباً من الانسان ومن الله .

وعندما قلت :

« قد صار القلب كمنقود ملقى في معصرة الدهر »

أردفت من عميق نفسك القديمة :

« عذب يا ربي العبد هنا وهناك تعطف بالاجر »

✽

كل الذين قرأوا « اللبنانية » قالوا منك انك دماغ جبار وحيلة واسعة تصور حالة البائسين اللبنانيين ايام الحرب الكونية الاولى باصدق مما تصور ريشة فنان مبدع .

وكل الذين اطلعوا على روايتك المطبوعتين « ارثور » و « ملك السيون »
 رأوا فيك مصوراً ماهراً لشخص النفس البشرية على حقيقتها . وكل الذين
 قلبوا صفحات « المروءة » عرفوا كيف تجمع التاريخ بالأدب وتصور بها ما .
 وقيل عنك انك اديب ومفكر وشاعر وانا اعرف انك كنت كاهناً قبل
 كل ذلك . وما كان الكاهن فيك ايسي . الى الاديب والمفكر والشاعر بل
 جنل وكنل . كاهن يذيب لياليه جلعاً للجائعين الى غذاء غير التراب الثاني .
 كاهن يهرق حتى الذوبان عمره في خدمة من أولم وابني ويجز على من ذلله
 الادقاع . عرف انه للخدمة والعتاء الذي لا يطلب ردوداً واسترجاعاً ، وحينما
 قال له احدهم : ان الكاهن اليوم يتبع الدرهم اجاب : « نحن نخدم الله
 وهذه غايتنا الاولى وما الغلس الا عرض يأتي . فليسمع الناس الغلس عنا فلن
 نمنعنا ذلك عن خدمتهم والسير امامهم على الطريق الصاعد الى جلجلة الحياة . »
 وقلبك كان تلك الجلجلة التي كم ستر عليها الناس الجلبان وقلبك كان
 نوافذ مشرعة على الافاق الرحبة لا تنطلق بوجه بانس من ذوي الحرمان ،
 وروحك كانت كزوى تتطلع منها أعين هي سكنى الحنان والانعطاف ...



واقتربت منك فاستندت الى كتفي ووقفت تنظر الى البعيد ولا تبصر
 بعينيك الحسيتين ولكن امام مقلة الروح ارجاء . عريضة المدى وافاق رحبة
 تراها ولا اراها انا الواقف عن عينك .

وقفت بعيد عليّ مقاطع من فرجيل شيخ الشعراء . كما كنت نسيه وترتث
 خافقاً باجمك عندما تلفظ :

« O terque quaterque beati . . . »

واحسن اذك تحيا الان امامي واراك بعين الحيال ممتداً كشجرة باسقة
 قديعة الاماليد تنفياً ظلها نبتة فنية كانت انا . آية حياة تهدر في ذلك الوجه
 الذي خدعت الليالي بياضه ! واي تهدج في تلك النبتة الخائفة التي تجرحني !
 شعرت كأنها آية من بلد بعيد فيها شيء من عالم الانهاية ، شيء من تمسة
 الاله الذي كنت تحمله كل صباح بين يديك وكل آن في قلبك .

ومشيت خطوتين ثم قلت لي : « قف » وأعدت شيئاً من تصيدك .
« القبر » ، وكان في صوتك رنة جزع يخاطله رجاء أكيد ، وغمرة حزن وبها
من عميق الامل شهوة للبقاء غير مخدولة :

« قف هنا ، قد كفى تحت الرحيل ، قالى اين انت تبغي الوصول ؟
قد وصلنا فالتق حملك وامسح من مسير الطريق عنك الوجود
هوذا القبر منتهى السير فاهداً نتحدث عن الحياة قليلاً... »

ومن اعماق ذلك الرادي الاخضر المرتعش تحت هيمات السيم الحبي ،
الغارق في دعة الغفوة المطمئنة ، قرب اختلاجات الدوالي الشاديات وقفت متطلماً
الى لا شيء . وقد شاعت على وجنتيك صفرة وشحوب وتنهدت تنهيدة عميقة
ذابت شمرأ :

« من الاعماق يا عذرا صرخت اليك ليبي
وها أنذا على قدميك ابكي فاستجيني...
فيا طوبى لمن سرت خطاياها ، فغطاني
بستر منك يا عذراء في الدارين يحيني... »

شيخ في الثالثة والثمانين : انت تبكي امام العذراء وتطلب ان تحتفي
بذيلها . إيه تلك الدموع التي افلتت من مقالك في اواخر آب ٢٠٠٠ أما لقيتها
اليوم يا ابي حلقات مشعشات نوراً في اكليل كان على الارض من شوك فاصبح
هناك عندك من لآلى سعادة باقية .

رافقتك في فترات من المرهات فمرفت منك حب كل شيء في
الارض واحترام الحشرة الذليلة والفرسة المضعوفة باحترام الانسان لان خالقها
ترك فيها اثرأ من حبه حين جبلتها يداه ، ومسحة من جماله حين رأى ان
إبداعها كان حسناً .

هكذا كنت تكتب « النجوى » . تستوحى الطبيعة التي احببت فجاء .
كتابك قطعة روح منك ومنها ، فلن يفهم كتابك الا الذي تعرف اليك
عن كتب .

أحببت كل شيء فلم تشمر الغريسة بعد ان اعتزلت الناس وجلست الى الاشياء. تحدثك وتحذرك ، واكاد اسمع نغمة الطيور العذاري وخفق اجنحة ابيكار الفضاء. متهلة في استقبالك . تسير الى الحقل وتندى الطعام والشراب وترود تحت اشجار الزيتون وفي ظلال الكروم كأنني بك أتستكشف اصبع الله المستدة الى الاكوان تخفر في تخاريب الصخور ثمانيل الحب التي لا يبصرها إلا الذين أوتوا روحاً شفافاً كروحك . وكأنني بك في ذلك الرادي تنشد اليد التي سوف تستدل بها في سيرك على طريق الأبدية . وتنهذ الى ظل كل شجرة وتحدث الى كل زهرة وصخرة وتهمس في مسامع كل طائر نغماً لم يسقط في مسامع انسان .

عذاب الشيخوخة هو الشعور بالوحدة والعزلة فكان الوجود انهمز في نظر الشيخ والاشياء. تعرت من معانيها والجمال اصبح مبثوراً . قصد يربيع هذا العذاب ولكنه لا يربيع نفسك الغنية التي لها من جمالها وروحانياتها قدرة على خلق عوالم جديدة تهبز بتقايس عوالم الواقع المتحطة .

وشيخوختك انت صبرة ترداد كل يوم الى اللقا. الاقصي مع الله ، هي جرة شوتر مشتهة محبوسة في عظامك كذلك التي حبست في عظام ارميا فجهدته إمساكها .

حقيقة انك لم تقل كلمتك الكبرى . لقد بقيت على شفتيك هيباً مستراً تحاول ان تهسسها فتعجز عن ذلك لان ما تحمل في قلبك لن يحمل الى الناس الا بجهد وعياء : في قلبك الحب الذي لا يذاع . وستنقرض البشرية ويبقى الحب كلمة في فم الانسان يحس بها كالانامل تتغلغل في خلايا وجدانه ويعجز عن النطق بها ، يفهمها ولا يستطيع ان يفهمها .

وكدت ادرك شيئاً من محاورتك الروح بكلمة حياتك الكبرى حينما كنت تنهض صباحاً وقد أروقت الليل كله تبهذ بترانيم التراه صوب الحق الاول فتدتم مذبياً صوتك مع اصوات الخلائق : «الهي لك الحمد ، الهي لك الشكران...» من لم يلمس تلك اليد المتداعية الانامل ويصغي الى نبرة ذلك الصوت الذي يترك في قرارة النفس شيئاً من نبرات نبي قديم فقد فاتته الاجتماع الى كلمتك الكبرى

قد لغظت شيئاً منها حينما كان يرن صوتك في حنايا كنيسة مهجورة ،
صوتك المتقطع الذي اكسبه الزمان روعة القدم . كنت وحدك مع الهك تبته
لواعج الفراق المستطيل والعمر المتورد . أي دخيل كنته انا اذالك اعبر على
الحبيبين صفوة اللقاء ! واشعر عندئذ بان كل ما كان حولك يتهدم وكأنك
تبادى وتسط أول بعيداً وتقترب في الاعالي ملتحقاً بكسرت متلبس من غمام
مشتتة الاطراف . وبكاد رجع كلماتك وترايلك يكون قطعاً مملوءة من
روح زاهرة نبأضة ...



كان ذلك في اواخر آب ، يوم التقينا للمرة الاخيرة ، وهكذا تحدثنا ثم
وقفنا ثم مشينا ووقع عصاك على حذاء الوادي كأنه انتفاضة قلب يحضر او
دقات مسامير في تلوت . ووصلنا أخيراً الى السديانة قرب « مار روحانا » ،
قرب القبر الفارغ المنتظر :

« قد وصلنا فألقِ حملك وامسح من غبار الطريق عنك الرجول ! »

وهناك تودعنا وخلف كلمات الوداع كان قلب يتقطع ، هو قلبي . وتركنتي
لتلج جوف امنا الارض بعد جواتك الغائرة في وجدان الدهر . لقد انتهى كل
شيء . ووضعت فوق القبر حجارة ضخمة ونبتت اليوم اعشاب بريبة دائمة الاخضرار .
واستفاقت الطيور في « الوها » حيرى فلم تسمع وقع اقدامك وتجات
صاوتك . واشجار « الزيتون » اشتبهت ان تظلللك يا من كنت فيثاً للنفس
التعبة . والسديانة الهرمة قرب الكنيسة استيقظت ذات صباح فابصرت
مكانك فارغاً وعصاك ملقاة على الارض تحلم بلقاء ان يأتي ، وتذكر لمس
الاصابع التي غيّبت في التراب . فلبس يتبعها النسيم الاتي من الوادي في آونة
الهجير ولا اذن تعني لالتقاط موسيقاها ، ولا قلب ينبض مع اختلاجات
وريقاتها - والكنيسة استندت الى ضريحك تكلي تصد الصلوات محرورة
لاعبة ...



زرت قبرك بعد سنة فاحسست بانك حاضر الروح هناك وشعرت بالرونة

حاشية عيه . وكانت المحافير تنفي وارعاة على الزر في بين قطعهم يشدون
في القصب فينصت الوادي من الحنين . وافتكرت طويلاً بحياتنا الهاربة من
أيدينا كأنها ظلّ في ميلان ، او هجرة في ليل . ولكننا غداً نستفيق في جوار
ربك حيث انفتحت عينك على الجمال وانفتح قلبك على الحب المبدع الكائنات .
نحن هنا في خيمة مندوبة لليلة عابرة ، وغداً حين يطلع الصباح ويفنى
العمر ننفض لتتابع رحلتنا نحو بيت الشروق ، وزادنا هو الرجا . ، ورجاؤنا
هو الدليل . . .

